اسماعيل» ثبت عند رؤية واحدة: استشهاد زوجته وولديه. «وكمال» ، النجار الصغير، قد تحددت حياته سلفاً: أن يصبح نجاراً. لذا يثور فجأة ويحطم الأطباق: «وغادر كمال المطعم.. ونظراته المنكسرة تحاول ألّا تكون كذلك، واتجه بجذل وأمل الى الدكان المقابل.. دكان ابي محمد النجار».

أي ليصبح نجاراً كأبيه الشهيد.

وأنا قد التقيت بهذه الظاهرة في مخيمات شاتيلا وصبره وبرج البراجنة. كان ذلك خلال حوارات أجريتها مع بعض أهالي هذه المخيمات، امتدت زمناً (في عام ١٩٨٠). وأعيد هنا ما ذكرته في «صورة شخصية لأم العبد»

«حديث الأم عن الشهيد يبدو، في الظاهر، متناقضاً. فهي تنكر أن الشهيد يموت، ولكنها، في الوقت ذاته، تتحدث عن موته. هذا ما لاحظته عند العديد من أمهات الشهداء اللواتي التقيتهن. لم أستطع أن أنفذ تماماً الى عمق هذا المعتقد الشعبي. كل ما استطعت فهمه أن للشهيد موتاً خاصاً، يتضمن حياة خاصة. وأن استشهاد الابن بالنسبة للأم، له حزنه الخاص، وفرحته الخاصة..».

وتحكي «أم العبد» عن زيارتها لمقابر الشهداء:

«يشهد الله، اني فتت، الدنيا غروب. القبور بلاقيهم خضر، خضر. وقفت أنا. قلت:

ــ أنتو أبناء فلسطين، ليش بتخوفوا بنت فلسطين! طيب، طيب، ما أنا بنت أكبر واحد فيكم، وأخت الكبير فيكو. يشهد الله القبور ساعتها تحركت. القبور بتتحرك لأن شهداءنا بدافعوا معنا، بحاربوا عدو فلسطين. تفكرش بالشهيد أنه ميت. لقيتهم بتحركوا وهمه بتحركوا لأن روح الشهيد بتحارب. البنت هاي كانت معاي. قلت لها:

ــ هيها (ها هي) القبور بتتحرك.

قال لي ابوصطيف:

ــ انتي مطوله؟

قلت:

ــ على مهلك. أنا بشوف القبور بتتحرك.

قال:

ــ لا حول ولا قوة الا بالله».

إن علينا أن نتذكر هنا، أن قصص ماجد قد كتبت قبل هذا الحديث بعشرين سنة تقريباً. ولكن الاثنين يقتربان من الحقيقة النفسية نفسها في الشخصية الفلسطينية: ان فعل الاستشهاد هــو مثال يطرحه الشهيد للاحتذاء.

لقد استطاع ماجد ــ وعلى حد علمي أنها المرة الأولى في الأدب الفلسطيني ــ أن يلمس عمق ذلك التكوين النفسي للشخصية الفلسطينية، وأن يكشف عن مكوّناتها: ذاكرة الموت، الشهيد الحي الميت، الموت الذي يرسم طريق الحياة. وهو بهذا قد طرح واقعاً اجتماعياً وتكويناً نفسياً جاهزاً للعنف الثوري.